

موقف التونسيين من فرض نظام الحماية الفرنسية 1881. 1912 م

The Tunisians' position on the imposition of the French protectorate
system 1881 - 1912 AD

د/ محمد سريج

جامعة حسيبة بن بوعلي. الشلف، الجزائر، m.seridj@univ-chlef.dz

تاريخ النشر: 2023/06/17

تاريخ القبول: 2023/04/04

تاريخ الاستلام: 2023/01/04

ملخص:

تعرضت تونس خلال القرن التاسع عشر إلى تنافس استعماري بين القوى الأوروبية الممثلة في كل من فرنسا وبريطانيا وألمانيا وإيطاليا، وتقرر مصير تونس في مؤتمر برلين الأول عام 1878 وانتهى الأمر لفرنسا في إطار تقاسم مناطق النفوذ وعليه دخلت تحت نظام الحماية الفرنسية منذ عام 1881، وإزاء هذا الوضع نظموا المقاومة الشعبية المسلحة كرد فعل على رفض الاحتلال في شتى أنحاء البلاد قادها زعماء منهم علي بن خليفة وعلي بن عمار العياري ورغم فشل المقاومة لعوامل عدة ظهر العمل السياسي بداية من 1907 في حركة الشباب التونسي التي كان من مطالبها: إيجاد نظام سياسي يتلاءم والتصور العصري لواجبات وحقوق الحاكم والمحكوم وإشراك الأهالي في حكم بلادهم وسن قضاء مستقل يضمن للتونسيين حقوقهم وغيرها من المطالب المتعددة سياسية اقتصادية واجتماعية وثقافية، وبتزايد نشاط الحركة عملت سلطة الاحتلال على قمعها و التضييق عليها بل ونفي زعمائها علي باشا حمبة وعبد العزيز الثعالبي خاصة بعد أحداث ما يسمى بـ "الترامواي" و"الزلزال" التي انتهت بأحداث دامية.

كلمات مفتاحية: تونس، التنافس الاستعماري، الحماية الفرنسية، العمل السياسي، المقاومة المسلحة.

Abstract:

During the 19th century, Tunisia was subjected to colonial rivalry between European powers represented in France, Britain, Germany and Italy. Tunisia's fate was decided at the first Berlin conference in 1878 and ended up in France's favor in the context of sharing spheres of influence, so it has been under the French protectorate system since 1881. In response to this situation, they organized the Armed People's Resistance as a response to the rejection of occupation throughout the country, led by leaders including Ali ben Khelifa and Ali ben Ammar El-Ayari, and Despite the failure of resistance to several factors, political

action emerged from 1907 in the Tunisian youth movement, whose demands were: to create a political system that fits the modern perception of the duties and rights of the governor and the governed, and to involve the community in the rule of their country and to enact an independent judiciary that guarantees Tunisians their rights and other multiple political, economic, social and cultural demands. With the movement's activity increasing, the occupation authority worked to suppress and restrict it and even exiled its leaders "Ali Bach Hamba and Abd Abdelaziz Thâalbi", especially after the events of the so-called "Tramway" and "El-Zalaj" which ended with bloody events.

Keywords: Tunisia, colonial rivalry, French protectorate, political action, armed resistance.

* المؤلف المراسل

1. المقدمة :

عرفت الدول المغاربية في القرن التاسع عشر موجة من التهديدات الأوربية، سرعان ما تحولت إلى استعمار مباشر أو غير مباشر (الحماية)، فالجزائر دخلت تحت السيطرة الفرنسية عام 1830 م، والمغرب دخل تحت ما يسمى بنظام الحماية المزدوجة الفرنسية. الاسبانية عام 1912، وليبيا ظلت مطمع الأوربيين إلى أن دخلت تحت الاحتلال الايطالي عام 1911، وتونس لم تكن بمنأى عن التنافس الأوربي بين الفرنسيين والانجليز بشكل خاص لتكون من نصيب الفرنسيين في الأخير، مستغلة الظروف التي عاشتها تونس في النصف الثاني من القرن التاسع عشر لتختلق أسباب وهمية وتجهز الحملة عام 1881، وتصبح واحدة من ممتلكات فرنسا التي فرضت نظام أسمته بالحماية ولكن قد لا يختلف في جوهره عن الاستعمار المباشر لما جسده فرنسا من واقع استعماري كبقية البلدان المستعمرة مع فروقات قد تكون شكلية أكثر منها واقعية وعليه فالإشكالية التي نود الإجابة عنها هي: كيف تم فرض نظام الحماية الفرنسية؟ وما ردود فعل التونسيين المختلفة من مقاومة مسلحة وعمل سياسي؟ ثم كيف واجهت فرنسا هذا النشاط الوطني في الفترة من 1881 إلى 1912 م؟

2. تطور نظام الحماية الفرنسية على تونس

2. 1. اهتمام القوى الغربية بتونس قبل 1881: تندرج الحملة العسكرية الفرنسية على البلاد التونسية سنة 1881 في إطار التوسع الاستعماري الأوروبي خلال القرن التاسع عشر، وهو القرن الذي شهدت فيه أوروبا الغربية تقدما علميا وصناعيا مكّنها من اكتساب القوة والازدهار والسيطرة العالمية، بل وأصبحت أوروبا الغربية بأمس الحاجة إلى رؤوس أموال إضافية لسد العجز والدفع بحركية صناعاتها المختلفة نحو الأمام وتحقيق الأهداف في تنمية الثروة أكثر.

لقد تأسس التوسع الاستعماري الأوروبي على نضج الثورة الصناعية في إطار الرأسمالية المتطورة نحو الاستقطاب المالي لما يوفره المشروع الاستعماري من ظروف ملائمة لتوفير المواد الأولية ولترويج البضائع دون منافسة تذكر، ولتوفير رؤوس الأموال بفوائد قروض مرتفعة، سيما مع بروز قوى جديدة منها ألمانيا والولايات المتحدة الأمريكية ناهيك عن السياسة الحمائية في مرحلة الكساد 1873. 1895 م (شاطر، 2005، صفحة 07).

في ظل هذه الظروف المتميزة بالتهافت الاستعماري على العالم، تونس لم تكن بمنأى عن المحيط الدولي فوجدت نفسها محل أطماع الأوروبيين مستغلين تدهور الأوضاع الداخلية المتمثلة في سياسة البايات الحسينيين التي ظلت تحكم تونس منذ 1705 إلى الاستقلال (الجمال، تاريخ العالم العربي الحديث والمعاصر منذ الفتح العثماني للعالم العربي إلى الوقت الحاضر، 1980، صفحة 27)، هذه السياسة الخاطئة في ميدان الاقتصاد والجباية ومعاملة السكان، كل هذا أدى إلى نضوب موارد الدولة وتفاقم النهب الجبائي، وعجزت الحكومة التونسية سنة 1869 عن تسديد ديونها، فأعلنت الدول العظمى فرنسا وبريطانيا وإيطاليا عن إفلاسها. أي إفلاس تونس. ونصّبت لجنة مالية دولية تتصرف في مداخلها ونفقاتها وبدأت مؤشرات الاحتلال العسكري تلوح في الأفق (العيرج، 2008، صفحة 09)، وبقي الأوروبيون في مسعاهم الاستعماري إذ وبانعقاد مؤتمر برلين عام 1878 برئاسة بسمارك ونتيجة المساومات بين بريطانيا وفرنسا وألمانيا تقرر مصير تونس، فالبريطانيون وعدوا شركائهم الأوروبيين وخاصة فرنسا أنهم لن يقفوا أمام الفرنسيين باحتلالهم لها مقابل موافقة الفرنسيين على احتلال بريطانيا لقبرص، كما دعمت ألمانيا موقف بريطانيا حتى تضعف

موقف إيطاليا التي كانت تهتم بتونس من جهة ومن جهة أخرى حتى تبعد فرنسا عن التفكير في الألزاس واللورين بعد هزيمة 1870. (الشريف، 1981، صفحة 07)، وأيضا (نمير، 2010، صفحة 104)

بدأ الفرنسيون يهتمون بتونس منذ أوائل القرن التاسع عشر وازدادت الامتيازات وتدخل القناصل في شؤون التونسيين الداخلية للسيطرة على المقدرات الاقتصادية، ففي عام 1861 حصل الفرنسيون على امتياز توسيع ميناء تونس وإنشاء سكة حديد وإقامة خطوط تلغراف ومنح الأجانب حق حيازة الأرض في تونس وأخذت البنوك الفرنسية تفرض على تونس قروضا، ففي عام 1862 بلغت سندات الدين على الباي محمد الصادق (1859-1882) الذي ورث الحكم عن أخيه في 23-12-1859، وهو الباي 12 من سلسلة الأسرة الحسينية، دام حكمه 22 سنة، وامتاز عهده بالضعف، (التميمي، 1995، صفحة 65) مبلغا قدره 28 مليون فرنك، فاضطرت السلطات التونسية إلى مضاعفة جزية النفوس أو ما يعرف بالمجبي وجعلتها ثلاثة أضعاف مما أدى إلى تدمير التونسيين، وتحولت فيما بعد إلى انتفاضة شعبية عام 1863 كان من أبرز قادتها علي بن خليفة إلا أن السلطات التونسية تمكنت من قمعها (خليل، 1987، صفحة 104).

2.2. الحملة الفرنسية على تونس: بدأ الفرنسيون بعد احتلالهم للجزائر بالعمل لاحتلال تونس وبرروا احتلالهم بذريعة أن القبائل العربية التونسية تنتقل عبر الحدود الجزائرية لدعم المقاومة، ففي 16 فيفري 1881 كان حوالي 300 رجل من قبيلة بني خمير، هذه الأخيرة اشتهر أبناؤها بحب الحروب وتميز أفرادها بالخشونة وكانت تغار من حين إلى آخر، فتأسر بعض الرجال وتسلب قطعان المواشي والماعز، وتكررت الحوادث أكثر من مرة، الأمر الذي مهدت له السلطة الفرنسية بتأمين المنطقة على المناطق المتاخمة للحدود الجزائرية قصد وضع حد لمثل هذه الاعتداءات (جلال، 1966، صفحة 43) التونسية بحجة توغل افراد من هذه القبيلة داخل الأراضي الجزائرية لينتقموا لأحد أفرادهم، وفي 31.30 مارس 1881 حدث اشتباك بين القوات الفرنسية والقبائل التونسية كان قد خطط له الضباط الفرنسيون بالجزائر وهو الاشتباك الذي اعتبرته فرنسا حجة للتدخل العسكري (تشايجي، 1973، صفحة 66.67)

و عليه ونتيجة هذه الاضطرابات التي أحدثتها قبائل الخمير (ليب، 1986، صفحة 151) دفع بالحكومة الفرنسية إلى تقديم احتجاج إلى الباي محمد الصادق محملة إياه مسؤولية هذا العمل (مخول، 2007، صفحة 155)، ومن ثمة أعطت فرنسا لمثل هذه الحوادث بعدا سياسيا وامنيا بل وعسكريا وراحت تنفذ مخططاتها الاستعماري على هذه الدولة المستقلة التي كانت دولة قائمة منذ اعتلاء المراديين الحكم عام 1631 وتبعهم الحسينيون من سنة 1705 إلى غاية عشية الاحتلال وهم إما أتراك أو ممالك (الجمال، تاريخ العالم العربي الحديث والمعاصر منذ الفتح العثماني للعالم العربي إلى الوقت الحاضر، 1980، صفحة 27)، ورغم محاولة الباي محمد الصادق أخذ مهمة تأديب القبائل حتى يفوت على الفرنسيين فرصة التدخل في شؤون البلاد وللحيلولة دون وقوع تونس تحت الاحتلال، أرسل أخاه الباي علي على رأس قوة وجهها للخميريين لحفظ الأمن، ومع إدراك قبائل الخمير خطورة الوضع أرادوا تفويت أيضا الفرصة على الفرنسيين، إلا أن ذلك لم يشفع لهم، بل وتذرعت فرنسا باعتماد التونسيين على عمال السكة الحديدية الأوربيين (العقون، 1984، صفحة 174)، فجهزت فرنسا حملة عسكرية برية نحو تونس عبر الحدود الجزائرية، بغية تأديب قبائل الخمير، حيث تحركت قوة من 31816 مقاتل بتاريخ 23 أفريل 1881 بقيادة الجنرال فور جمول For Gemol باختراق الأراضي التونسية، انطلقوا للزحف على تونس عبر مدينة الكاف (التونسية) قاصدين "باردو" مقر الباي والجنوب كما جهزت أسطولها الحربي الذي هاجم بنزرت في الشمال وبذلك أصبحت البلاد التونسية محاصرة من الجهات الثلاث، ومما يعزز نية الاحتلال الفرنسي لتونس أنه قبل أن تقع حوادث الحدود قامت فرنسا باتخاذ التدابير والاستعدادات العسكرية على الحدود الجزائرية في الأشهر الأخيرة من 1880، كما أن رئيس الحكومة الفرنسية "جول فيري" Jules Ferry طلب من الحاكم العام في الجزائر في أوائل جانفي 1881 الإسراع في مد خط السكة الحديدية الذي يصل الجزائر بتونس، حتى يسهل نقل الجنود، (الحمداي، 2016، صفحة 45)، وبالتالي اغتنمت الفرصة وتحركت في الوقت نفسه في الجنوب بقيادة الجنرال لوجورو Logerot، وفي 26 من نفس الشهر تمكنت القوات من الوصول إلى ميناء طبرقة، وفي 01 ماي احتل الفرنسيون ميناء بنزرت بقوة تقدر 8000 مقاتل بقيادة الجنرال بريار Breart، وتوجه نحو تونس (تشايحي، 1973، صفحة 126. 130) وأيضا (نمير، 2010، صفحة 104)، وعند صبيحة 12 ماي 1881 قدّم الجنرال بريار Breart

نص مشروع معاهدة إلى الباي محمد الصادق فاضطر إلى توقيعها بعد مشاوراته مع القصر والحكومة ومن ثمة أصبحت تونس تحت الحماية الفرنسية في 12/05/1881، أمام الوزراء والعلماء والأعيان معترفا بالاحتلال وانتهى الحال بالاحتلال الرسمي (غلاب، 2005، صفحة 93 . 94)، يفهم من أن فرنسا لا تريد احتلال تونس وإنما جاءت فقط لفرض الأمن وحفظ النظام العام ولكن هل التزمت فرنسا بذلك؟

بمقتضى معاهدة الحماية احتفظ الباي باستقلال بلاده الداخلي وجمع صلاحياته السياسية والتشريعية والقضائية (ساحلي، 1990، صفحة 86)، إلا أنه ومنذ بداية عهد الحماية أخذت السلطة الفرنسية تسعى إلى محاولة التدخل في الشؤون الداخلية للبلاد التونسية (غلاب، 2005، صفحة 85)، واستغلت فرصة قيام ثورة وطنية مسلحة ضد قوات الاحتلال عام 1882 (تشايحي، 1973، صفحة 86) ووفاة الباي محمد الصادق في أكتوبر 1882 ليخلفه أخوه الباي علي (1882 . 1902) حينها راحت ترغم الباي الجديد على إمضاء معاهدة أخرى تدعى معاهدة المرسى في 08 جوان 1883 (شاطر، 2005، صفحة 22)، أي سنتين بعد معاهدة القصر السعيد (باردو) التي مهدت للاحتلال ووضعت أسسه الأولى (الجوهر، 1961، صفحة 51).

اتفاقية المرسى أقامت الإطار القانوني الذي لم يتوفر ضمن معاهدة باردو والذي تحتاجه فرنسا كي تدير الشؤون الداخلية للبلاد التونسية كما تشاء، فاستعملت عبارة الحماية في الاتفاقية بوضوح وهدفت الاتفاقية إلى إعلان السلطة المطلقة لفرنسا في البلاد التونسية، وفي الوقت نفسه تعهدت بتسديد الديون وخاصة مصاريف الحماية بما يثقل تكاليف الاستعمار على البلاد من خلال الجباية التي تفرض على أهلها (شاطر، 2005، صفحة 23). كما تعهد الباي بتطبيق الإجراءات الإدارية والقضائية التي تراها فرنسا مناسبة وبموجب هذه المعاهدة تمكنت فرنسا من بسط سيطرتها على تونس وبالتالي المعاهدة الأولى أحكمت فرنسا بها قبضتها على تونس خارجيا والثانية داخليا (المحجوبي، 1986، صفحة 86)

المتتبع لتاريخ فرنسا الاستعماري سيما ما حدث في الجزائر يستشف مدى التشابه في عرض القادة الفرنسيين وجهة نظرهم بداية الاحتلال حتى يوهموا الشعوب بأن وجودها مؤقتا وأنها تهدف إلى تطبيق إجراءات محددة وتحقيق هذه الأخيرة يمكن لفرنسا الخروج في الجزائر اتخذت من حادثة المروحة ذريعة لتأديب الداوي وأن وجودها في الجزائر ما هو إلا بسبب

إهانة الداي حسين لعظمة فرنسا وتعهدت بمقتضى هذا الاتفاق باحترام الجزائريين ودينهم وأعراضهم وممتلكاتهم وغيرها ولكن ما حصل غير ذلك فالداي الذي جاءت لمعاقبته منحتة الأمن والأمان وخرج من الجزائر وعشيرته دون أذى، بينما دفع الجزائريون الثمن بتكريس منطق الاحتلال منذ 1830، الأمر سيان مع تونس، إذ اعتبرت حادثة قبيلة الخمير بأنها تدخل في الأراضي الجزائرية التي هي فرنسية على أساس أن الجزائر جزء منها، واتخذت منها ذريعة لحشد قوة عسكرية قوامها أكثر من ثلاثين ألف جنديا، أيعقل أن تحشد هذا العدد الهائل بحجة تأديب القبيلة، إنه المخطط الذي لطالما كانت تنظر تجسيده على أرض تونس وما يؤثر ذلك أيضا سلوك وتصريحات بعض القادة والقناصل الفرنسيين قبل فرض الاحتلال وهو ما ينم عن أمر خطط له من قبل وكانوا ينتظرون تحقيقه وأن أوان ذلك .

3. رد فعل التونسيين إزاء نظام الحماية وظهور العمل السياسي من 1881. 1914 م

3. 1. رد فعل الشعب التونسي: بإمضاء الباي محمد الصادق على معاهدة المرسى المكملّة لمعاهدة قصر باردو، أصبح الاحتلال واقعا وأدرك الشعب التونسي أن الباي وحاشيته تواطئوا مع سلطة الاحتلال، خاصة بعدما جردته فرنسا من سلطته الفعلية ولم يعد يملك زمام الأمور سوى شكليا، ضف إلى ذلك أن التونسيين لم يكونوا على تواصل مع حكوماتهم لأن البايات الذين حكموا تونس اعتمدوا على قوى أجنبية من ممالك وأتراك في إدارة البلاد فضلا على أن اللفييف الذي كان يحيط بالباي اتصف بعمالته وتطلعه لتأمين مصالحهم على حساب الوطن (عامر، 2017، صفحة 31).

هذه العوامل وغيرها دفعت بالشعب التونسي إلى تنظيم المقاومة، إذ تمثلت في نوعين : المقاومة المسلحة وهي بدورها عرفت شكلين : المقاومة العفوية : وتشمل جميع أبناء الوطن المحتل كل ساهم حسب إمكانياته حتى لا يحس المحتل بالاستقرار والهدوء، ومقاومة مسلحة منظمة : تتولى قيادتها شخصية وطنية أو دينية، وهناك المقاومة السياسية وهي التي يولى أمورها أشخاص ينتمون إلى تيارات سياسية مختلفة هدفهم واحد وهو الاستقلال وطرد المحتل (عامر، 2017، صفحة 31)، وعليه فظهور المقاومة كان كرد فعل مباشر على الاحتلال وأهم ما يمكن أبرازه هو أن المقاومة التي ظهرت في شتى أنحاء البلاد التونسية بدءا بالشمال الغربي حيث تصدت قبائل الخمير وعمدون وشتاتة (لعيرج، 2008، صفحة 13) وظهور المقاوم علي بن خليفة الذي نظم الثورة وجمع المقاومة تحت قيادته وانضمت إليه

قبيلة بنو زيد (فروة، 1995، صفحة 58)، وتعتبر قبائل الخمير من أوائل من ثار ضد القوات الفرنسية من جهة طبرقة والكاف التي احتلت من قبل الفرنسيين بسهولة، كما تزعم المقاومة في جهة الكاف القبائل من أولاد عيار بقيادة علي بن عمار العياري، أما في طبرقة (غرب تونس مجاورة للحدود الجزائرية) فقد هبّ متطوعون من أولاد بوسعيد والحوامد وأولاد عمر ولم تتمكن فرنسا من إخضاع المدينة إلا بعد قصفها بالمدافع يوم 1881/04/26 واستمرت المقاومة في الشمال جهة جندوبة بمشاركة قبائل أولاد سالم والشيحية وعمدون يوم 1881/04/29، ودارت معارك طاحنة خسرت فيها القبائل التونسية أكثر من 300 مقاتل (الحمداني، 2016، صفحة 88.90)، وفي وسط البلاد وجنوبها ومع تقدم الجيوش الفرنسية استعدت القبائل للمواجهة فهاجم جماعة من أولاد سعيد في أواسط ماي 1881 مقرر شركة مرسيليا للقرض بهنشير النفيضة بعد أن تناهى إلى مسامعها أن المقرر مخبأ للأسلحة الفرنسية (العيرج، 2008، صفحة 13)، وفي الجنوب ظهرت المقاومة المسلحة التونسية خلال شهر جوان 1881 بصفاقس بمشاركة عامة الناس مع قبيلة المثلث، مما بعثوا الرعب في صفوف الجالية الأوروبية وظهر المقاوم علي بن خليفة الذي نظم الثورة وجمع المقاومة تحت قيادته في شهر جويلية 1881 وانضمت إليه قبائل مثلث والسواسي وجلاص، كما بعث برسلكل من ساحل سوسة وقبائل أولاد سعيد ورياح وطرابلسية زغوان، وبفضل هذا الدعم والمساندة أصبح علي بن خليفة القائد الفعلي لصفاقس (المحجوبي، 1986، صفحة 48 . 49)، وظل الأسطول البحري الفرنسي يهاجم المدينة وتمكن من احتلالها يوم 1881/07/16 بعد مقاومة شرسة ساهم فيها سكان المدينة من بينهم علي بن خليفة وبعض الأعيان مثل محمد كمون (العيرج، 2008، صفحة 14). و رغم كل هذا التحرك التونسي في شمال وغرب وجنوب تونس إلا أنه المقاومة منيت بالفشل ومع ذلك لم ييأس التونسيون وتوجه بعض أعيان المدينة إلى قابس لاستمرار المقاومة يتقدمهم الحاج صالح بن خليفة رفقة جمع من المواطنين وفعلا واجه هؤلاء القوات الفرنسية التي وصلت يوم 1881/07/26 في كل من المركزين "المنزل" و"جارة" ودارت مواجهة كبيرة بين الأسطول الفرنسي ومقاومي المنزل وجارة وتمكن الفرنسيون في الأخير من احتلال قابس بعد أربعة أشهر أي في نهاية شهر نوفمبر 1881 من الصمود والمقاومة وإلحاق الخسائر المادية والمعنوية بالعدو (المحجوبي، 1986، صفحة 50).

أما في الساحل فقد ظهرت مجموعات مقاومة تتكون من المجندين الفارين أو المسرحين من جيش الباي، تقاتل الفرنسيين والمتعاونين معهم من السلط المحلية بقيادة سعد القم البناني وساسي سويلم والحجاج علي بن خديجة وولد البحر وعلي بلحاج حسن الميلي، جميعهم حاول تقديم ما يمكن تقديمه من تنظيم للمقاومة (لعيرج، 2008، صفحة 14).

بقيت المقاومة التونسية تظهر نوعا من الصمود والعزم ضد المحتلين رغم ما عتراها من فشل في كثير من الأحيان لعوامل مختلفة، فجدد يوم 19/08/1881 أعيان وقبائل وقياد ماجر والفراشيش والهمامة وجلال دعوتهم للمقاومة أثناء اجتماعهم بسببيلة (العجيلي، 1992، صفحة 128)، ورغم تجدد المعارك وتصديها لقوات الاحتلال في كل مرة إلا أن القوات الفرنسية استطاعت الزحف نحو سوسة بداية شهر سبتمبر لتصبح مدينة القيروان هدف قوات الاحتلال قصد تشتيت المقاومة في الوسط (شاطر، 2005، صفحة 26)، بعدما تمت السيطرة على القيروان وتشتت المقاومة فخضع البعض لقوات الاحتلال والبعض الآخر انضم لقوات علي بن خليفة والبعض الآخر هاجر إلى طرابلس إذ تشير التقديرات أنه هاجر إلى طرابلس منذ الحملة الفرنسية إلى تونس 10/1 من السكان أي ما بين 120000 و140000 نسمة تنتهي أساسا لقبائل الوسط والجنوب شبه الرحل مثل الهمامة، الجلاص ونفات، والمهاذبة والمثاليث وبني زيد وورغمة (لعيرج، 2008، صفحة 15)، إلا أنه في سنة 1882 عاد البعض إلى تونس واجتازوا نفزاوة إلى أن وصلوا إلى قفصة ومنهم من اتجه إلى الجلاص نحو القيروان مرة أخرى، هذا وشنّ أولاد رضوان غارات على القوافل الواقعة بين قفصة وشط الجريد ونصبوا كمائن للقوات الفرنسية الصغيرة (القصاب، 1986، صفحة 43 . 44)، وحاولت فرنسا استمالة المقاومين رفقة علي بن خليفة، وفشلت في مسعاها إلى غاية 1884 التاريخ الذي انتهت فيه المقاومة بموت علي بن خليفة ورضخ السكان لسيطرة الفرنسيين (القصاب، 1986، صفحة 45. 46).

هي انتفاضات عدة قام بها التونسيون ضد الفرنسيين ولكن حاولنا عرض بعض النماذج من باب الأمثلة ليس إلا، ورغم ما قدمه التونسيون من تضحية مع ما اعترتها من الفشل إلا أن ذلك راجع إلى العوامل التالية:

الوهن الاقتصادي والديموغرافي للبلاد بسبب التغلغل الأوربي في تونس قبل انتصاب الحماية وتنفشي المجاعات والأوبئة (لعيرج، 2008، صفحة 19) والجفاف والأزمات الاجتماعية والاقتصادية.

. ضعف الإمكانيات المادية بشكل خاص التي ليست في مستوى إمكانيات فرنسا الاستعمارية من وجود أسلحة حديثة ومدفعية والتخطيط المنظم، بل عمدت فرنسا إلى إبعاد الثوار في كل مرة عن الشعب حتى تقطع عنهم الإمداد والاتصال . تشتت المقاومة من منطقة لأخرى وعدم وجود تنظيم محكم بالإضافة إلى تعدد القيادات وفساد النظام السياسي الممثل في الباي وحاشيته أنهم لم يكونوا في مستوى تطلع وآمال الشعب التونسي ناهيك عن انقطاع المدد من الخارج خاصة الدولة العثمانية التي كانوا يأملون في أن تمدهم بالمساعدة المادية (الجمال، المغرب العربي الكبير في العصر الحديث، 1977، صفحة 311)

. دور مشايخ الطرق الصوفية في تسهيل عملية الاحتلال منها ما قام به ابن جدو ابن الحاج أحمد شيخ الشاذلية بتوزر من إعادة سكان توزر وضواحيها الفارين منها بعد وصول القوات الفرنسية لتهدة الأوضاع (العجيلي، 1992، صفحة 348) بالإضافة إلى تعاون قدور الميزوني شيخ الطريقة القادرية مع الاحتلال (الحمداني، 2016، صفحة 129).

. صغر مساحة تونس مكن الفرنسيين من تغطية البلاد بقواتها خاصة وأن البلاد التونسية خالية من الممرات الجبلية والوديان التي من شأنها مساعدة الثوار على الاختباء، الأمر الذي سهل المهمة للفرنسيين وإضعاف المقاومة، (عامر، 2017، صفحة 113).

لكل فعل رد فعل والتونسيون كغيرهم من الشعوب التي تعرضت للاحتلال لم يستسلموا لسياسة الامر الواقع، واجتهدوا بما لديهم من وعي ونضج سياسي وحس وطني من أن يوصلوا رسالة للمستعمر أن هذا الشعب ليس من اليسير احتلاله وأن كان الفارق في الإمكانيات، وانتفض هنا وهناك في شتى المناطق التونسية على الأقل لم يسلم تونس لفرنسا، وككل المقاومات الشعبية المسلحة المنظمة وغير المنظمة سواء في تونس أو الجزائر أو المغرب الأقصى أو ليبيا كان مصيرها الفشل لاعتبارات عدة ولكن مع ذلك هي رسالة للعدو أن هناك شعب لا يرضى بالعبودية والاستغلال وأنه أنى أتاحت له الفرصة يشكل خطرا عليه، بعد هذا رد الفعل المباشر أدرك التونسيون أن العمل المسلح على الأقل في تلك الظروف ليس

مناسبا مما دفع به إلى التفكير في تغيير أسلوب النضال من العمل المسلح المتواضع إلى العمل السياسي علنه يظفر ولو بالزر اليسير من مطالبه، فما هي عوامل ظهور العمل السياسي ضد الاحتلال في تونس؟ وما أهم المطالب التي رفعتها النخبة؟ وبم تميز رد فعل الاحتلال من 1907 إلى 1912؟

2.3. ظهور العمل السياسي الوطني ضد الاحتلال : 1907. 1912:

3.2.1. عوامل ظهور الحركة الوطنية التونسية: لعل أن لكل حركة تحريرية أو نضالية عوامل ساهمت في تكوينها وأهم العوامل المساهمة في بروز العمل الوطني السياسي هي: .
النضال الثقافي والفكري 1885. 1906 : أدركت النخبة التونسية أن المجتمع مغلوب على أمره أمام التطور الفرنسي المتعدد الأوجه، فالفرق يكمن في التخلف الحضاري وعليه يجب الأخذ بأسباب الرقي ومواكبة ما يجري في البلدان الأوربية من تطور اقتصادي وتقني وعسكري، وأن المواجهة المباشرة مع الاستعمار لم تعد تجدي نفعا، فعقدت العزم على الماضي قدما في العمل من أجل تحقيق ثلاثة أهداف هي: . العمل الصحفي والتعليم والعمل الجمعياتي

. العمل الصحفي :نشأت الحركة الصحفية في تونس مبكرة نوعا ما بالنسبة للعالم العربي وارتبطت بالحركة الإصلاحية التي تزعمها الوزير خير الدين بأمر أصدره الباي يوم 7 نوفمبر 1859 لإنشاء مطبعة في تونس، وعند انتصاب الحماية الفرنسية بادر الباي تحت ضغط المقيم العام يوم 14 أكتوبر 1884 بإصدار قانون للصحافة جاء مقلدا للقانون الفرنسي الذي صدر يوم 29 جويلية 1881، ومجمل ما يتميز به هو الدعوة إلى حرية الصحافة والنشر والحصول على ترخيص مسبق إقرار الضمان المالي الذي يضاعف بالنسبة للجرائد السياسية ويضاف إلى ذلك التهديد بالتبعات اللازمة في حالة إخلال الصحف بهذه الالتزامات، وبسبب عدم قدرة الصحف على الالتزام بالمضمان المالي تم إلغاؤه بأمر أصدره الباي في شهر أوت 1887، فانطلقت الحركة الصحفية من عقاليها وصدرت عدة جرائد (الموسى، 1997، صفحة 38)، ومن بين الصحف التي برزت في هذه الفترة هي: . جريدة "الحاضرة" : التي تعد أول جريدة عربية غير رسمية تصدر بتونس في أوت 1888، وتولى إدارتها علي بوشوشة وهو من خريجي المعهد الصادقي وسليل عائلة ثرية من بنزرت، درس بانجلترا ثم توظف لمدة بتونس قبل أن يتفرغ للعمل الفلاحي، والتف حوله مجموعة من ذوي

الثقافة العصرية مثل البشير صفر ومحمد لصرم ومحمد بلخوجة، وسانده بقوة من بقي على قيد الحياة من أنصار خير الدين التونسي مثل: الشيخ سالم بوحاجب ومحمد السنوسي، كما يعرف عنها أنها جريدة معتدلة لا تنتقد سياسة الحماية وإن فعلت فإنما يكون بلطف ودبلوماسية، هذا لم يمنعها من إثارة قضايا مصيرية منها خطر الأوقاف والدفاع عن الصنائع التونسية المهددة بالزوال والدعوة لتوزيع عادل للجباية وتطوير التعليم (لعيرج، 2008، صفحة 24)، ثم تولى تحريرها مجموعة من المثقفين التونسيين من خريجي المعهد الصادقي الذين تلقوا ثقافة عصرية وتعرفوا على أفكار المصلحين التونسيين، وفي مقدمتهم المصلح الوزير خير الدين، فظهرت جريدة "الحاضرة" لتدافع عن مصالح التونسيين وتبرز تردي الوضع وتنادي بضرورة إصلاحه (شاطر، 2005، صفحة 65).

. جريدة "الزهرة": ظهرت سنة 1890 باللغة العربية وهي التي أسسها عبد الرحمان الصنادلي، وهو تونسي من أصل جزائري نشأ في مصر وتخرج على يد الشيخ محمد بيرم الخامس، هي جريدة سياسية، أدبية، تجارية امتد نشاطها من 20 جويلية 1890 إلى 9 أفريل 1959، يعرف عن الجريدة أنها ناقدة لنظام الحماية (لعيرج، 2008، صفحة 24).

. جرائد أخرى : نشط العمل الصحفي أكثر بعد جريدتي "الحاضرة" و"الزهرة" وقبلهم "الرائد التونسي" (جريدة رسمية)، إذ عرفت تونس صحفا أخرى منها : "نتائج الأخبار" و"القصباء" سنة 1888 و"البصيرة" 1892 و"سبيل الرشاد" 1895 و"لسان الحق" 1896 و"البستان" عام 1900 و"القلم" 1903 و"الرشدية" 1904 و"تونس" 1905 و"لسان الأمة" 1906 و"المعارف" باللغة العربية و"التونسي" باللغة الفرنسية عام 1907، و"الفتح" و"التونسي" باللغة العربية عام 1909 و"اللواء" 1910 و"المشير" 1911 (أديب، 1961، صفحة 221).

لقد أدت هذه الصحف دورا كبيرا في إيقاظ الرأي العام التونسي وتبصيرهم بحقوقهم في العيش بحرية ونادت بالتححر ومناهضة الاستعمار وتأييد الحركات الوطنية والانتفاضات الشعبية، كما كان البعض منها مهتما بالشأن الخارجي وخاصة حال الأمة الإسلامية وما كانت تعانيه من تخلف وظلم استعماري

. التعليم : بقدر ما أدت الصحافة دورا إيجابيا في تنوير الرأي العام التونسي بمخاطر نظام الحماية والدعوة إلى مناهضته، عرفت تونس أيضا روافد أخرى ساهمت في تنمية الوعي الوطني وتغذية الشعور القومي بمشاعر الوطنية والتحرر، ومنها :

. جامع الزيتونة : جامع الزيتونة يعتبر من أرفع المؤسسات التعليمية العربية الإسلامية مكانة، بل هو من أقدم المساجد وأشهرها وشهرته لم يكن يستمدها من طابعه الديني فقط، بل من دوره العلمي والتضامني الذي اضطلع به، وصار فضاء للتعليم، تلقى فيه الدروس العلمية على اختلاف مواضعها وأنواعها منذ القرن الثالث الهجري، وتم تنظيمه في عهد الدولة الحفصية (1207. 1574) التي ازدهر في عهدها التعليم، فجامع الزيتونة ذاع صيته وأخذ صبغة نظامية ولكن مع مرور الأيام راعه شيء من الفتور استوجب إصلاحه، وخير الدين باشا (1873. 1877) اهتم بالتعليم الزيتوني وأصدر مجموعة من القرارات والأوامر لإصلاح التعليم الزيتوني ونظام الدراسة فيه، (الحداد، 1981، صفحة 20. 19).

. المدرسة الخلدونية : معهد أنشئ في 22 ديسمبر 1896 غايته تقديم دروس ومحاضرات في التاريخ والجغرافيا واللغة الفرنسية والاقتصاد السياسي وعلوم الصحة والفيزياء والكيمياء....و هي دروس موجهة لتلاميذ الزيتونة بالأساس لأن تعليمهم كان مقتصرًا على المواد الدينية والغوية، تأسس في شكل جمعية يمول من الأوقاف والمحسنين (لعيرج، 2008، صفحة 26)، وأصبحت مدرسة حرة تقوم بإعداد الطلبة الزيتونيين للامتحانات بالمواد الجديدة، فكان من نتيجة ذلك تشجيع عقول الطلبة بالأفكار الإصلاحية (الشريف، 1981، صفحة 73)، وجاءت في ظرف تميزت فيه الحياة الثقافية والتعليمية بتونس في ظل تطبيق سياسة الحماية، بعدما سارعت فرنسا إلى جعل المدارس تخضع لإشراف الدولة وجعلها ميدانا لتكريس الثقافة الفرنسية من خلال تشجيع التعليم الفرنسي لأبناء فئات معينة وبناء مدارس جديدة للفرنسيين والمستوطنين من الجالية الأوروبية (بيضون، 1991، صفحة 112. 113).

.المدرسة الصادقية : تم استحداث المدرسة بصدور أمر في يوم 13 جانفي 1875 أسسها خير الدين التونسي، وتولى إدارتها العربي زروق منذ إنشائها إلى سنة 1881، (خوجة، 1986، صفحة 312)

و خلال حديثي مع بعض الأساتذة التونسيين أكدوا لي: " أنها تعد أول مدرسة ثانوية عصرية في البلاد التونسية جاءت بعد الزيتونة للمساهمة في تعليم النشء العلوم المختلفة وتخرج من الصادقية العديد من القيادات منهم الرئيس حبيب بورقيبة وعلي البلهوان والوزير مصطفى فيلاي وعلي باشا حامية والوزراء محمد المصمودي وأحمد بن صالح ومحمود المسعدي ومصطفى بن خوجة وغيرهم، هذه المدرسة لها برامج عصرية وطرق تدريس حديثة ضمت إلى جانب اللغة العربية اللغات الأجنبية كالتركية والاطالية والفرنسية وتدرس العلوم العصرية كالرياضيات والفيزياء والعلوم وغيرها .

. العمل الجمعياتي : من أمثلة العمل الجمعوي نجد جمعية. قدماء الصادقية، هذه الأخيرة تأسست في ديسمبر عام 1905 من قبل مجموعة من التلاميذ الذين درسوا في مدرسة الصادقية التي أسسها خير الدين باشا عام 1875، هذا المصلح ولد عام 1822، ينتمي إلى قبيلة أباضة الشركسية في جبال القوقاز، أسر وهو طفل، وبيع في اسطنبول إلى مبعوث الباي أحمد (1837/ 1855) وعمره 17 سنة، دخل المدرسة الحربية وتدرج في الوظائف حتى أصبح وزيرا اكبر، كلفه الباي محمد الصادق في عام 1871 بمهمة توثيق العلاقة بين تونس والدولة العثمانية ونجح في ذلك، وكان له دور كبير في الحركة الإصلاحية بتونس، توفي عام 1889، (المنجلي، 1973، صفحة 27 . 28)، وأيضا (أمين، 1977، صفحة 161 . 170)، والهدف منها إكمال مسيرة مدرسة الخلدونية في نشر الأفكار الجديدة وبث فكرة النهوض والتقدم في عقلية الشعب التونسي والالتحاق بعجلة التطور الحضاري، الأمر الذي غلب على نشاطها في البداية بث الثقافة الفرنسية خاصة والغربية عامة بدعوة المثقفين والكتاب والصحفيين لإلقاء الندوات والمحاضرات وغيرها مما شجع الحكومة الفرنسية على دعمها ومحاولة كسب شريحة الشباب التونسي (الحمداني، 2016، صفحة 182 . 183)، ولما أدرك بعض الشباب التونسي مخاطر هذا العمل سرعان ما دعا رئيس الجمعية خير الله بن مصطفى إلى توسيع نشاطاتها مع مثقفي الزيتونة والخلدونية وأقبل الزيتونيون على الجمعية وتوالت المحاضرات لأعلام الزيتونة واستطاعوا في الأخير بعث روح جديدة في وجه التعليم

والطلبة وبإفشال محاولة فرنسا محو الشخصية الوطنية التونسية والوقوف صفا واحدا في وجد الصحف الاستعمارية (القصاب، 1986، صفحة 383).

هذه العوامل السالفة الذكر من صحافة وتعليم وعمل جماعي، ساهمت في تنوير الرأي العام التونسي بمخاطر نظام الحماية الذي لا يقل عن الاستعمار المباشر رغم التضيق الذي طالهم من قبل الفرنسيين وسلطة الباي الشكلية، ضف إلى ذلك التناقضات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والظروف الموضوعية، وبروز قوى شعبية وسياسية على الساحة السياسية، كل هذا ساعد في إيجاد مناخ ملائم لظهور ما يسمى بالتيارات السياسية استطاعت أن تدفع بالتونسيين إلى الدخول في العمل السياسي عله يحقق بعضا مما يطالب به منها أهمها الحرية وإصلاحات في شتى المجالات ناهيك عن رفض بعض ما يمس المقدسات والثوابت الوطنية التونسية، وعلى هذا الأساس نشطت الحركة الوطنية التونسية في الفترة من 1907 إلى 1912 تمثلت في حركة الشباب التونسي، ففيم تمثل نشاط هذه الحركة وكيف قابلتها السلطة الاستعمارية؟

2.2.3. نشاط حركة الشباب التونسي 1907. 1912 م :

. حركة الشباب التونسي : هي حركة سياسية ظهرت بتونس عام 1907، مستغلة الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية العامة في تونس وحتى في محيطها العربي والإسلامي، ترأس الحركة أو شغلها علي باشا حامية وجدت في الشباب التونسي بشقيه الزيتوني والصادقي فرصة لسلوك طريق جديد في النضال من خلال التلاحم الفكري مع النهضة العربية في مصر وسائر أقطار المشرق العربي ولاسيما مع تجربة الشباب المثقفين ثقافة فرنسية الذين أصبحوا وطنيين مرتبطين بشعبيهم وأمتهم (الحمداني، 2016، صفحة 192 . 193)، جعلت من جريد التونسي Le tunisien الصادرة باللغة الفرنسية في 1907/02/07 منبرا لها لنشر أفكارها وأهدافها المتمثلة في مقاومة الاحتلال الفرنسي وتحسين الوضع في تونس بإدخال الإصلاحات في مختلف المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، (أحمد، 1960، صفحة 336)، وأمام تزايد نشاط حركة الشباب التونسي والانتشار الواسع لجريدها، نجحت في تحقيق بعض الأهداف منها فرض العنصر التونسي في مجلس الشورى والتف الشباب التونسي حول الحركة بشكل أوسع (الشريف، 1981، صفحة 98).

كانت لحركة الشباب التونسي أو ما اصطلح عليها بـ "تونس الفتاة" دورا بارزا في الفترة ما بين 1907 و1912، إذ حظيت بتأييد شعبي كبير بدأت بتنظيم الجماهير في إطار الحزب مخالفين ما أرادت السلطات الفرنسية الوصول إليه وهو احتواء النخبة التونسية ضمن الإطار الفرنسي أو إبعادهم على الأقل من المطالب الوطنية، إلا أن الثقافة والتجربة التي كان يتمتع بها هؤلاء الشبان التونسيون جعلت منهم وطنيون مرتبطون بالوطن موجهين ضربة موجعة للاحتلال (الطاهر، 1975، صفحة 40.39)،

3.3.2. نشاطها : واصلت حركة الشباب التونسي نشاطها من خلال مشاركتها في مؤتمر شمال إفريقيا الذي انعقد في باريس أوائل أكتوبر 1908، حيث طرحت فيه قضية تونس ومما تقدم به التونسيون هو إيجاد نظام سياسي يتلاءم والتصور العصري لواجبات وحقوق الحاكم والمحكوم وبالتالي ضرورة إشراك الأهالي في الحياة العامة حتى يتمكنوا من المشاركة في حكم بلادهم وسن قضاء مستقل يضمن للتونسيين حقوقهم (المحجوبي، 1986، صفحة 33).

ونتيجة هذا النشاط السياسي الذي أدته الحركة إلا أنها وجدت معارضة شديدة من قبل الفرنسيين، حيث أقيمت السلطة الفرنسية على حلّها مستغلة أحداث الزلازل 1911 وحادثة الترامواي عام 1912، إذ كثيرا ما اتهمت السلطة الفرنسية قادة الحركة بتأجيج الاضطرابات والصراع بين التونسيين والفرنسيين والجالية الإيطالية هناك وهو ما تجسد في حدثين هامين عامي 1911 و1912 وهما حادثة الزلازل والترامواي، إذ شهدت البلاد التونسية صدامات بين التونسيين والجالية الإيطالية وأخذت هذه الأخيرة تتحين الفرصة لإظهار حقدها على الشعب التونسي وكانت آخرها معركة الزلازل عام 1911 والترامواي عام 1912 التي وجدت السلطات الفرنسية فرصة للقضاء على حركة الشباب التونسي وقادتها الذين اعتبرتهم خطرا يهدد الوجود الفرنسي بتونس (أحمد، 1960، صفحة 336)

. أحداث الزلازل 1911 : الزلازل هي مقبرة إسلامية تقع إلى الجنوب الشرقي من العاصمة التونسية نسبت إلى واقفها (محمد الزلازل)، وتعد أقدس مقبرة لدى السكان لاحتوائها على قبور العلماء والأمراء والأعيان فضلا عن وجود مغارة وضريح أبي الحسن الشاذلي صاحب الطريقة الشاذلية، وكانت أرض المقبرة تابعة لجمعية الأوقاف التي أوكلت الاهتمام بشؤونها إلى البلدية لعدم امتلاكها الدخل الكافي لإدارتها، (الجيلاني، 1974، صفحة 17. 18) بدأت أحداث

الزلاّج بين سكان مدينة تونس والسلطات الفرنسية على اثر قرار بلدية تونس بتسجيل مقبرة الزلاّج (أحمد، 1960، صفحة 336)، وتم تحديد 07/ 11/ 1911 للقيام بعملية المسح ووجهت الدعوات للسكان بوصفهم أصحاب المقبرة لحضور عملية التسجيل، (الطاهر، 1975، صفحة 46)، وزحف عدد كبير من التونسيين الرافضين لفكرة التسجيل أمام الجنود الفرنسيين الحاملين للسلاح ورغم محاولة تهدئة الأوضاع من قبل شيخ البلدية وبعض أعضاء المجلس البلدي إلا أن هذا اعتبر مناورة استعمارية، وحدث أن قام بعض المتظاهرين التونسيين بقذف الجنود الفرنسيين بالحجارة فكان رد الفعل الفرنسي بإطلاق النار وبدأت المواجهة العنيفة (المحجوبي، 1986، صفحة 34)، اندلعت المعركة أمام المقبرة وتم انتقلت إلى الشوارع المؤدية إليها ولا سيما شارع سيدي البشير الذي تقطنه عدد كبير من الجالية الإيطالية (ساحلي، 1990، صفحة 101)، وتسببت في خسائر بشرية بوجود من القتلى والجرحى واعتقال عدد آخر من المتظاهرين، أما في صفوف الفرنسيين والإيطاليين تم قتل عشرة منهم، وتقديم أكثر من ثمان مائة تونسي للمحاكم منهم اثنان وسبعون مثلوا أمام المحاكم الفرنسية، وحكم على سبعة منهم بالإعدام، ولم ينفذ الحكم إلا في اثنين هما : الشاذلي القطاري ومنوبي الجرجار وبراءة ستة وثلاثين شخصا (الحمداني، 2016، صفحة 228).

أما البقية فقد تراوحت الأحكام في حقهم بين الأشغال الشاقة المؤبدة، كما تم نفي البعض الآخر إلى الجزر الفرنسية ومنها جزيرة كاليدونيا الجديدة حيث قضوا فيها أحكاما بالأشغال الشاقة المؤبدة أو لمدة معينة (الطاهر، 1975، صفحة 48.49).

لقد كانت لأحداث الزلاّج تبعات كبيرة على مستقبل حركة الشباب التونسي إذ اتهمت السلطة الفرنسية الحركة بأنها وراء الأحداث متهمة علي باشا حامية ورفاقه بأنهم هم المحرضون على الحوادث وقامت بتعطيل الجريدة (الحمداني، 2016، صفحة 228)، ومهما كانت التبعات سلبية إلا أنها استطاعت أن توقظ الوعي لدى الشعب التونسي والشباب بصفة خاصة وأثبتت الأحداث أن الشعب وحده قادر على الكفاح والصمود ودفع الثمن من اجل الحقوق المغتصبة.

. أحداث الترامواي 1912 : لقد ألف الشعب التونسي الكفاح معتمدا على نفسه، وما يتمتع به من وعي وطني وشعور قومي، فرغم الإجراءات التي اتخذتها فرنسا بعد أحداث الزلاّج ضد

الشعب التونسي إلا أنها غير كافية لمنع الشعب التونسي من الدفاع عن مكتسباته وحقوقه أتى أتيحت له الفرصة يتضح ذلك من خلال حادثة الترامواي التي انطلقت يوم 1912/02/08 إثر حادث تعرض له طفل تونسي بعد أن صدمه سائق إيطالي للترامواي يدعى أحمد إبراهيم الحربي ذو الثماني سنوات وذلك بين السكة الرابطة بين باب السويقة وباب سعدون، (معزة، 2010، صفحة 29)، وعلى اثر هذه الحادثة قرر السكان في اليوم نفسه مقاطعة الركوب في عربات الشركة مقاطعة جماعية، واستغل العمال التونسيون الفرصة للمطالبة بنفس الامتيازات التي يتمتع بها العمال الايطاليون المستخدمون في المساواة بالأجور، (البلهوان، 1954، صفحة 41).

نجحت عملية المقاطعة وأصبحت الشركة مهددة بالإفلاس، الأمر الذي أدى بتدخل السلطة الفرنسية قصد إصلاح الوضع منتهجة أسلوب اللين مرة والوعيد مرة أخرى، عندها تدخلت حركة الشباب التونسي لإنهاء المقاطعة مقابل مطالب يجب أن تتعهد الشركة بتحقيقها والمتمثلة فيما يلي :

. طرد العمال الايطاليين وتعويضهم بتونسيين وفرنسيين ومساواة كافة العمال في الأجور والمنح والترقيات بين جميع موظفي الشركة

. طرد كل من يتسبب في قتل أي إنسان من سائقي الترام

. المساواة بين الصحفيين التونسيين والأجانب في ركوب العربات مجاناً

. استعمال اللغة العربية إلى جانب الفرنسية في كتابة العناوين وأسماء مواقف المحطات (الحمداني، 2016، صفحة 231.232).

. تنبيه العمال إلى ضرورة احترام الركاب التونسيين (الطاهر، 1975، صفحة 55)

لقد تبين أن العوامل الحقيقية وراء الأحداث ليست في شقها الجنائي بقدر ما هي مطالب سياسية واجتماعية واقتصادية، الأمر الذي رفضته الشركة واعتبرت فرنسا أن حركة الشباب التونسي يجب القضاء عليها ووضع حد لنشاطها، سيما وأنها أصبحت طرفاً في المعادلة وأندرت الأهالي بضرورة العودة إلى الحياة العادية وإلا أصبح المسألة سياسية وليست اجتماعية، إلا أن هذا الإنذار لم يؤت ثماره وبقي الأهالي متمسكين بمقاطعتهم للترامواي ومناهضتهم للشركة (المحجوبي، 1986، صفحة 37).

بعد هذا الرفض التونسي لجأت فرنسا إلى إجراءات أهمها : إعلان الحصار على المدينة تونس وتعطيل الصحف الوطنية وإيقاف نشاط حركة الشباب التونسي ولجأت إلى اعتقال أعضاء اللجنة في 13/03/1912، وحكمت على البعض منهم بالنفي فاختر علي باشا حامية والشيخ عبد العزيز الثعالبي تركيا منفى لهما، (جلال، 1966، صفحة 242).

خاتمة : من خلال ما سبق ذكره في هذه الدراسة نخلص إلى النتائج التالية :

. فساد نظام البايات الحسينيين في النصف الثاني من القرن التاسع عشر فتح الباب للتنافس الأوربي على تونس

. صراع الأوربيين وتنافسهم على تونس حسمته فرنسا لصالحها وفق خطة تقاسم مناطق النفوذ مع باقي القوى الاوربية منها بريطانيا وايطاليا وألمانيا

. استغلال فرنسا لحادثة صراع القبائل الحدودية الجزائرية التونسية لتجهيز حملة عسكرية

. فرض معاهدة باردو التي مقتضاها أصبحت تونس تحت نظام ما يسمى بالحماية

. إضفاء طابع الشرعية على الاحتلال بمقتضى معاهدة المرسى 08 جوان 1883 م

. رفض الشعب التونسي للواقع الاستعماري تمثل في قيام ثورات شعبية مسلحة

. فشل المقاومات في تحقيق الهدف وهو طرد المحتل أو على الأقل مواجهته لكي لا ينعم بالاستقرار

. وذلك بسبب عوامل منها ضعف الإمكانيات وقوة العدو وافتقارها للتنظيم .

. تغيير أسلوب النضال من المسلح إلى السياسي .

. النشاط السياسي التونسي ضد نظام الحماية سبقه نشاط صحفي وتعليمي وعمل جمعي.

. ظهور حركة الشباب التونسي 1907 بزعامة علي باشا حامية و الثعالبي بشايطها السياسي

. نشطت هذه الحركة بتعبئة التونسيين وتنوير الرأي العام بمخاطر نظام الحماية

. من تأثيرات حركة الشباب التونسي في هذه الفترة هو مساهمتها في تأجيج أحداث الزلازل والتمردات

. والتي كان ظاهرها امني واجتماعي إلا أن باطنها كان سياسيا من خلال المطالب التي رفعها عمال

. السكة الحديدية للنقل والتي تنم عن توجيه سياسي أكثر مما هو مطلب اجتماعي

. إزاء هذا النشاط كان لفرنسا رد فعل مباشر وتم حل الحركة ونفي زعمائها إلى اسطنبول

. أخيرا نقول : تونس كغيرها من البلاد العربية، دخلت تحت طائلة الاحتلال الفرنسي الذي تبين

. أهدافه منذ الوهلة الأولى، وبديل من أن تلتزم فرنسا بما تعهدت به من تأديب قبائل الخمير إلا أنها

. جعل منها مطية فقط لتكريس الهيمنة والبقاء إلى غاية الاستقلال عام 1956، ورغم أن التونسيين

. بادروا إلى إظهار ردود فعل مختلفة منها العسكرية والسياسية إلا أن ذلك لم يشفع لهم، وقابلتهم

. برد فعل عنيف سواء في المقاومة التي أخدمتها أو في النشاط السياسي الذي عملت على إجهاضه

ونفي زعمائه، وبالتالي خلت الساحة السياسية من أي نشاط إلى غاية نهاية الحرب العالمية الأولى، أين تغير الوضع وتجدد النشاط من جديد تمثل في ظهور الحزب الحر الدستوري عام 1920 م .

قائمة المراجع :

. المؤلفات :

. التميمي، عبد الجليل . (1995)، الجيش التونسي في عهد محمد الصادق باي (1859-1882)، تونس، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات .

. الجمل، شوقي عطا الله . (1977)، المغرب العربي الكبير في العصر الحديث، ط 1، مصر، دار الطباعة الحديثة .

. الجمل، شوقي عطاء الله . (1980)، تاريخ العالم العربي الحديث والمعاصر منذ الفتح العثماني للعالم العربي إلى الوقت الحاضر، القاهرة، مكتبة الانجلو المصرية .

. الجيلاني، بن الحاج يحيى . (1974)، معركة الزلاج 1911، ط 2، تونس، الشركة التونسية للنشر .

. الحداد، الطاهر . (1981)، التعليم الإسلامي وحركة الإصلاح في الزيتونة، تقديم وتحقيق : أنور بوسنينة، تونس، دار المعارف للطباعة والنشر .

. الحمداني، نهاية محمد صالح . (2016)، الحركة الوطنية التونسية 1881 . 1920، عمان، الأردن، ط 1، دار المعتز للنشر والتوزيع .

. الساحلي، حمادي . (1990)، فصول في تاريخ الحضارة، ط 1، بيروت، دار الغرب الإسلامي .

. الشريف، البشير بن الحاج عثمان . (1981)، أضواء على تاريخ تونس الحديث 1881/1924، تونس، دار سلامة للطباعة والنشر .

. الطاهر، عبد الله . (1975)، الحركة الوطنية التونسية، رؤية شعبية قومية جديدة، 1830 . 1956، ط 2، تونس، دار المعارف للطباعة والنشر .

. العجيلي، التليلى . (1992)، الطرق الصوفية والاستعمار الفرنسي بالبلاد التونسية 1881 . 1939 م، تونس، منشورات كلية الآداب .

. القصاب، أحمد . (1986)، تاريخ تونس المعاصر 1881 . 1956، تع : حمادي الساحلي، ط 1، تونس، الشركة التونسية للتوزيع .

. المحجوبي، علي . (1986)، الحركة الوطنية بين الحريين، تونس، منشورات الجامعة التونسية .

. المحجوبي، علي . (1986)، انتصاب الحماية الفرنسية بتونس، تع : عمر بن ضو ، تونس، مطبعة الرأس .

. المنجلي، الشملي . (1973)، خير الدين باشا، تونس، الدار التونسية للنشر .

- . الموسى، عصام سليمان . (1997)، أعلام الصحافة في الوطن العربي، الموسوعة الصحفية العربية، المجلد 1، ج 6 تونس، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم .
- .أمين، أحمد، (1977)، زعماء الإصلاح، مصر، مكتبة النهضة المصرية .
- .بن العقون، عبد الرحمان بن ابراهيم . (1984)، الكفاح القومي والسياسي ،، ج2، بيضون، جميل .(1991)، تاريخ العرب الحديث، ط1، الأردن، دار الأمل للنشر والتوزيع .
- .تشايحي، عبد الرحمان .(1973)، المسألة التونسية والسياسة العثمانية 1881/1913،، تونس، دار الكتب الشرقية .
- .جلال، يحي .(1966)، المغرب العربي والاستعمار، مصر، الدار المصرية للتأليف والترجمة .
- .جلال، يحي .(2005)، تاريخ المغرب الكبير الفترة المعاصرة وحركات التحرير والاستقلال .
- .خليل، أحمد إبراهيم . (1987)، تاريخ الوطن العربي الحديث والمعاصر، الموصل، العراق، مطبعة دار الكتب للطباعة والنشر
- .خوجة، محمد . (2005)، صفحات من تاريخ تونس، تق وتغ : حمادي الساحلي، الجيلالي بن الحاج يحي، بيروت، دار الغرب الإسلامي،.
- .شاطر، خليفة وآخرون . (2005)، تونس عبر التاريخ . الحركة الوطنية ودولة الاستقلال . ج3، تونس، مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية .
- .عامر، أحمد .(1960)، تونس عبر التاريخ، تونس، مكتبة النجاح .
- .عامر، محمود علي . (2017)، تاريخ تونس وليبيا المعاصر،، ط1، عمان، الأردن، دار الإعصار العلمي للنشر والتوزيع.
- .غلاب، عبد الكريم . (2005)، قراءة جديدة في تاريخ المغرب العربي، ج3، ط1، بيروت، دار الغرب الإسلامي .
- .فروة، محمد . (1995)، المقاومة المسلحة في تونس خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، تونس، منشورات المعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية .
- .لعيرج، خولة وآخرون .(2008)، موجز تاريخ الحركة الوطنية التونسية 1881 . 1964، جامعة منوبة، تونس، المعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية .
- .مخول، موسى . (2007)، موسوعة الحروب والأزمات الإقليمية في القرن العشرين في إفريقيا، ط1، بيروت، لبنان، بيسان للنشر والتوزيع والإعلام .
- .مروة، أديب . (1961)، الصحافة العربية ، بيروت، منشورات دار مكتبة الحياة .

. نمير طه ياسين . (2010)، تاريخ العرب الحديث والمعاصر، ط1 ، الأردن، دار الفكر ناشرون وموزعون

.ليب، عبد الساتر. (1986)، التاريخ المعاصر، ط3، بيروت، لبنان، دار المشرق .

، الجواهر، حسن محمد . (1961)، شعوب العالم تونس، مصر، دار المعارف .

المحجوبي، علي . (1986)، انتصاب الحماية الفرنسية بتونس، تونس، مطبعة الرأس .

الرسائل الجامعية :

.معزة، عز الدين . (2010)، فرحات عباس والحبيب بورقيبة : دراسة تاريخية وفكرية مقارنة 1899 .

، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر (غير منشورة)، قسم التاريخ، جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر .